بيـن لغة أمـي العربيـة وشـقيقتها العبرية: لغتان متكاملتان غير متخاصمتين *

د. سيجال جورجي
محاضرة في جامعة بن غوريون في النقب.

يحاول فرانتس فانـــون (1925-1961) في كتابه «جلد أســـود أقنعة بيضاء» (1952) أن يشرح ويفهم سيكولوجية ونفســـية العلاقات بين السود والبيض تحت الحكـــم الاســـتعماري. وفقا لفانـــون، يُعلِّم الاســـتعمار ضحاياه أن اللون الأبيض يمثل الأفضل والثروة والحضارة، بينما الرجل الأسود يمثل الأسوأ والأدنى. وعلى هذا النحو يشعر الرجل الأسود بنوع من الاحتقـــار تجاه لغته وثقافته ولـــذا يتبنى ثقافة الرجل الأبيض. إنه يحاول أن يكون متشابها بالرجل الأبيض بقدر ما يســـتطيع حتى يصبح أسود يرتدي قناعا أبيض. ولكن هذه هي عملية احتيال لأن الرجل الأبيض يعتقـــد على الدوام أنه هو الإنســـان الأمثل بالذات، ولذلك من حقه أن يتصرف مع الأسود بازدراء واستخفاف.

إذا أخذنا بالمجاز نظرية فانون وطبّقناها على حالة اليهود النازحين من الدول العربية إلى إسرائيل سنجد تشـــابها كبيرا. أخذت إسرائيل بأســـباب الحضارة الغربية، ولكي «تُثَقِّفَ» يهود الدول العربية على ضوء هذه الحضـــارة طالبتهم بالعمل فـــي روح الفكرة الاســـتعمارية، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول أنها «ألحّت عليهم بالاعتراف» بعدم قيمة عاداتهم الشرقية وبتبني أشكالا جديدة من النظام الأوروبي المتحضر والعقلاني (رام، 2007، ص. 148). وهكذا كان: قام االنازحون اليهود وخاصة أولادهم الذين أحسوا بأنهم أقل شـــأنا من النُّخبـــة السِّـــكناجيّة بإزالة مميزات حضارتهم الشرقية ممّا أدى إلى كبت لغة الأم العربية وإلى احتضـــان لهجة معدومة الحـــروف الحلقية. بالفعل، وقع هؤلاء المهاجرون، وخاصة أبناء الجيل الثاني، في حالة مـــن التنافر المعرفـــي تمثلت في الحرمان من لغة الأم والتبرؤ منها من أجل التشـــابه "بالإسرائيلي الأبيض" قدر الإمكان. وهكذا، فإن لغة الأم - والتي لهـــا دور مركزي في تشـــكيل الهوية

* المقال يعتمد على مداخلة قدمت في مؤتمر «العربية لغة في عين العاصفة» بمبادرة مركز دراســـات، المركـــز العربي للحقوق والسياسات ومعهد فان لير في القدس.

الثقافيـــة والتي مـــن خلالها يكتســـب الأطفال قيم الحضارة التي عاش فيها والداهم (טננבאום, 2003) – تصبح بنظرهم أقل شأنا وأقل قيمة مقارنة باللغة السائدة، لذا نجد أن ثقافة اليهود النازحين من الدول العربية تُدرك على أنها أقل شأنا، وعليه من المحتمل أن هؤلاء المهاجرين سيواجهون صراعات في تشكيل هويتهم وثقافتهم الذاتية.

القصـــة القصيرة «هوية» للكاتبة ســـيجال شـــبيرا (شبيرا، 2007)، تشكّل مثالًا لما ذُكر أعلاه: في هذه القصة نرى البنـــت الصغيرة التائهة في الباص الذي يقود طريقـــه في المطر الغزير تُجيب الســـائق في صيغة المذكّر ممـــا يؤدي إلى موجة من الضحك بين الرُّكّاب:

- «سألني – إلى أين؟
- فأجبت: لست عارفًا.

ولفرط دهشتي أثارت هذه العبارة موجة من الضحك داخل الباص، لم تلائم مزاجي حدقت بأمل بوجه السائق. إلا أنه عجل أولًا ليلقي علي درسًا قصيرًا بالعبرية

- الولد يقول «لســـت عارفًا» البنت تقول «لست عارفـــة». وأنت تريدين بالتأكيد الســـفر إلى المعبرة.»

عندمـــا وصلت بطلة القصة إلى المعبرة لم تجد أهلها وإنما وجدت شاحنة تأخذ الأولاد إلى القرية:

- «اسمك رجاءً، أيمكنك أن تذكري لي لو سمحت اسمك؟

كررت هذا السؤال امرأة ترتدي معطف مطرز. ومن خلال النور المزدحم لمعت أمامي أسنانها المتبلجة من فم يبتسم بتعب.

- إسمي؟
- وذكرت اسمي الحقيقي، اسمي الذي سمتني به امي، لكنني ســـرعان مـــا تراجعت إذ لقد غيَّروا اسمي! غمغمت باسمي الجديد بانعدام ثقة وكانني لا أعرفه.»

يمكننا أن نـــرى من خلال هذه القصـــة الصعوبات ومشـــاكل الاندماج التي واجهها يهـــود العراق في إســـرائيل حتى أن الاســـم الذي يمثل الهوية الذاتية ونفسية الانسان أُخِذَ من يهود العراق ليشكلوا هوية جديدة، وهذه هي خير شهادة لمحاولة إزالة عاداتهم وتقاليدهـــم وحضارتهم واقتلاعهـــم من جذورهم الشرقية.

على ضوء ما ذكر أعلاه، أســـعى في المقال أدناه، أن التفت إلى تجربة شخصية في الحياة على ضوء التقاء اللغتين العبرية والعربية.

وُلدت في اسرائيل لوالدين نزحا من العراق في السبعينيات من القرن الماضي ولهذا، فمن الطبيعي أنَّ لغة أمي كانت اللغة العربية. فالجملة الأولى التي أذكر أنني سمعتها باللغة العبرية كانت: «אנחנו עולים חדשים – إننا قادمون جدد». سألَتْ أمي أولاد العمارة التي كنا نسكن فيها، لماذا لا يلعبون معي فأجابتْ إحدى البنات أن السبب يكمُنُ في حقيقة أنني أتكلم باللغة العربية فقط ولا أتكلم بالعبرية: «הבת שלך מדברת רק ערבית - بنتُكِ تحكي باللغة العربية فقط». بعد أن أدركت معنى هذا الكلام انطلق مني بصوت عالٍ وواثقٍ الجوابُ الذي أذكره كأول جملة قلتها باللغة العبرية. كان هذا جوابي لهذه البنت: «לא נכון, אני יודעת עברית – لستِ على حقّ! أنا أعرف العبرية!» قلت هذه الجملة عندما كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري تقريبا. كان هذا ردّ فعل غاضب

على جارتي التي كانت بمثل سني. حسب أمي، وعلى ما يبدو تكلمت باللغة العبرية قبل هذا الحادث ولكن هذه كانت الجملة التي غيرت تصرُّفاتي مع اللغة العربية. منذ ذلك الحين توقفت عن التحدث باللغة العربية. بدأت أجيبُ أمي وأتحدثُ معها باللغة العبرية فقط مع أنها كانت لا تزالُ تتكلم معي باللغة العربية. واصلت التكلم باللغة العربية مع جدتي التي لم تكنْ تُحْسِنُ التكلم باللغة العبرية ومع اثنتين من خالاتي فقط. من ذلك الحين تبنَّيْتُ اللغة العبرية كلغة الأم. في الواقع، على مر السنين، شعرت بفرح كبير واعتزاز عظيم لأنني خلافا لأبناء خالاتي الذين وُلدوا في العراق – فأنا وُلِدت في اسرائيل الدولة الديموقراطية. ولكن لماذا لا يمكن أن أكون صابريت «צברית – أي مولودة في اسرائيل وأتكلم العربية؟ هذا هو جزءٌ مما سأحاول تفسيرهُ في مقالي هذا.

وبالفعل، لقد أدركت أمرين: الأول هو أنني «الأخرى»، والأمر الثاني هو أن اللغة العربية هي لغة غير مُسْتَحَبّة وغير مرغوب فيها في المجتمع الذي أعيش فيه. يكتب فرانتس فانون، في كتابه **جِلْد أسود أقنعة بيضاء**، أن اللغة تلعب دورا هاما في تحديد الهوية. لكي يتحررَ الانسان الذي يعيش تحت الاستعمار من الإحساس بالنَّقص تجاه الحضارة المستعمِرة فهو يختار تبني لغة الأمة المستعِمرة وحضارتها. وكُلَّما يتبنى الرجل الأسود قيم المجتمع المستعمِر وكلما يُنكِرُ سواده سيكون أكثر بياضا (فانون، 2004، ص. 15). يمكننا أن نجد تشابها كبيرا بين نظرية فانون وقصة حياتي: لكي لا أشعرَ بأنني «اخرى» ولكي أُصبِحَ «محبوبة» بين الأولاد، فهمت وأنا طفلة صغيرة أنه يجب علي أن أبتعد عن لغة أمي العربية وأن امتنعَ عن استخدامها، وهذا ما حدث. أصبحتْ اللغة العربية بالنسبة لي، ما كان يُسمى «لغة العدو» التي يَدُلُّ استِخْدامُها على انحطاطٍ ثقافيٍّ في مُحيطنا اليهودي. ولذلك اخترت التنكر لها.

وعلى الرغم من الكَبْت والقمع اللغوي، وجدت نفسي في نهاية المطاف أختار في المدرسة الثانوية دراسة اللغة العربية وهذا على حساب دراسة الحاسوب الذي كان التخصص الأكثر هيبة في المدرسة. من ناحية، تعلمت اللغة العربية واستمتعت بدراستها، ولكنْ من ناحية أخرى، لم أجرؤ على التكلم بهذه اللغة، وعندما تكلمت بها أدخلتُ عليها رطانة أجنبية. نتيجةً لذلك، اختَرْتُ قسم الأدب واللغة العربية في الجامعة. ولكني على الرغم من ذلك، لم أجرؤ على التكلم باللغة العربية، وعلى أي حال، كان المحاضرون يُدرِّسون العربية باللغة العبرية، باستثناء البروفسور شموئيل موريه والدكتور دافيد سجيف عراقيي الأصل، فقد كانا يربطان في محاضراتهما بين اللغة العربية والثقافة والأدب العربي ولذلك كانا يُدَرِّسان اللغة العربية كلغة حية وشاعرية تُثِيرُ في الطلاب حب اللغة العربية والاهتمام بها وبثروتها وجمالها، بينما كان الأساتذة الآخرون يستخدمونها كلغة للبحثِ فقط. والحقيقة أنني بدأت أتحدث باللغة العربية عندما كتبت رسالة الدكتوراه، وكان موضوع البحث في رسالتي، «الكاتب الكبير والصحفي الراحل أنيس منصور».

بدأت محادثاتي الهاتفية مع الاستاذ أنيس منصور من خلال التكلم بالانجليزية وفي مرحلة مُعَيَّنَة تركنا الانجليزية وبدأنا نتكلم باللغة العربية. اللغة، في نهاية الأمر مرتبطة بالثقافة. اللغة العربية مرتبطة بالثقافة العربية وبالاسلام، وحقيقة الأمر هي أن التقاء اللغتين هو أيضا التقاء بين ثقافتين. وهذا اللقاء بين الشرق والغرب ينعكس في الأدب العربي

والإســـرائيلي. مِثالٌ مهم على ذلك وجدته في رواية الكاتب سيد قشـــوع، ضمير المتكلم (גוף שני יחיד, 2010). نجد في هذه الرواية محاميًا ناجحا، متزوج وله بنت وولد. يعيش المحامـــي في القدس الغربية اليهودية. يقرأ شكســـبير. يُرسِل أولادَهُ إلى مدرسة يهودية-عربية مشـــترَكَة ليس من أجل التعايش، بل لكي يستوعب أولادُهُ الثقافة الغربية (قشوع، 2010، ص. 43). المحامـــي الناجح، يرتـــدي «قناع الرجل الأبيض» وينظر إلى مواطني المثلث العربي باحتقار. ويصل به الأمر أنه حينَ يُســـاوِرُهُ الظن بأنَّ زوجتَهُ تخونُهُ مع رجل عربي وليس يهوديا يشـــعر بالضيق ويتساءل: «هو من المثلث؟ إذن خَصْمُهُ قَرَوِيٌّ؟ الرجل الذي ربما قرأ كتبا أكثر منه والذي فضلتْهُ زوجتُهُ عليه كان رِيفِيًّا بسيطا، تماما مثلَهُ؟» (قشوع، 2010، ص. 226) هنا، أيضا، نـــرى أن المحامي الذي أصلُهُ من المثلث يتخذ موقفا سلبيا تجاه المنطقة الريفية التي جاء منها. أزعجه الفكرُ بأن عشيقَ امرأتِهِ قد يكون من المناطق الرِّيفية، يعني من مستوى أدنى منه.

الرواية «غرب الأردن» (عام 2003) للكاتبة الأمريكية من أصل أردني، ليلى الحلبي، هي من أروع الروايات التي كُتبت في هذا الســـياق عـــن التقاء الحضارتين. تتناول الرواية حياة أربع فتيات بنات خالات من قرية فلســـطينية، واحدة منهن (وهي الشخصية الرئيسية في الرواية) ســـافرت لتدرس في أمريـــكا، واثنتان تعيشان في الولايات المتحدة، والرابعة لم تترك حدود بُلْدتِها الفلسطينية. احدى هذه الشخصيات هي خديجة التي تعيش مع اهلها في أمريكا.

خديجة بالـــذات التـــي تعيش في أمريـــكا وتتكلم بالانكليزية تشـــعر بالغربة: فمن جهة تشـــعر أنها تختلف عن بقية التلاميذ لأن والديها ليســـا من أصل أميركي. وهي تقول عن أستاذ علم الاجتماع: «أريد أنْ أَصْرُخَ في وجهه إنني أميركيـــة مثلكُم تماما.» من جهة أخرى، حينَ تتناقش مع والدتها فإنها تقول لها إنها أمريكية وليســـت فلســـطينية. وتقول لوالدتها باللغة الإنجليزية: «أنتِ فلسطينية – أما أنا فأمريكية». تلتقي خديجة في المدرســـة برفيقة جديدة أمريكية وتخجل من أن تَدعوها إلى بيتها. عندما اكتشفت الأم هذا الأمر ســـألت ابنتَها بلغة انجليزية «مكسّرة» إن كانت تشـــعر بالخَجَل. هذا الســـؤال جعلها في حالة نفسية متوترة وهي تقول: «الموضوع ليس خَجَلي، ولكن هناك أشياء لا يستطيع الامريكيون فهمها منها مثلا اللغة التي تتكلم بها أمي.» وتتمنَّى خديجة أن تُعد أمُّها طعامًا أمريكيًا وليس شرقيًّا عندما تأتي الصديقة الأمريكية لزيارتها (حلبي، 2008، ص. 126).

تشـــعر خديجة، التي تعيش في الولايـــات المتحدة وتتكلـــم اللغة الانجليزيـــة، بالدونيـــة. مصدر هذا الإحســـاس هو أيضا لأن مَن تعيش معهم لا يعرفون كيف يُنطِقون اسمَها ولذلك يتعاملون معها كإنسانة غريبة. تشعر خديجة بالخجل لأن والديها لا يجيدان الإنجليزيـــة وفي نفس الوقت ترفـــض أن تتكلم مع والدتِها باللغة العربية. مع كل ذلك فأن نظرة المجتمع الأميركي نحوها هي أنها غريبـــة عن هذا المجتمع. وعلى هذه الخلفية نرى أن في المجال الثقافي يعتبر الانسان الأبيض انســـانا مفضلا بينما يعتبر الانسان الأســـود في درجة مُنحطّة. أي أنـــه في نقطة التقاء الحضارتين يتخذ الانسان الأسود موقفًا سلبيًا تجاه لغتِهِ وثقافتِهِ هو ويبذُل مجهودا كبيرا ليتشبّهَ بالانسان الأبيض.

بالنسبة لنا، نحن اليهود القادمين من البلاد العربية، يمكن أن نقول أن حالة الحرب بين إســـرائيل والدول العربية المجاورة أدت إلى ازاحة اللغة العربية جانبا، بل وفي بعض الأحيان تنشـــأ حالة تشبه العداء بين

اللغتيـــن والثقافتين. نتيجة لذلـــك أصبح الكثيرون يتجاهلون التشـــابه والتقارب القائمين بين اللغتين. نعود إلى خديجة التي تعيش في امريكا: وهي تتعرف على شـــاب يهودي ولكنها تُخفي الأمر عن والديها. هذه الشـــخصية تحتل مكانًا هامشيا فقط في الرواية ومع ذلك فإن خديجة تَشْـــرَحُ العلاقات بينهما خلال تيار الوعي: «مايكل يُحِبُّ مدّ خُطوط متشـــابهة بين المسلمين واليهود، أعتقد انه يريد أنْ يُثبت أننا يمكن أن نكون أصدقاء.... وهو يقول: «في القدس، يتوجه المســـلمون واليهود إلى وجهتيـــن مختلفتين (في الصلاة) ، ولكن عندما يأتون إلى أمريكا فإنهم جميعا يتوجهون نَحْو الشرق.» (حلبي، 2008، ص. 84) لا أنوِي هنا تحليل الرواية ومغزاها، ولكن مما قُلْتُهُ حتى الآن يتضح بدونِ شـــك أن اللغة هي خطٌّ من خطوط التشابه بين اليهود والمسلمين. اللغة العبرية واللغة العربية تَوْأمانِ. وعلى مُرِّ التاريخ كتب يهود الشـــرق العربي والمغـــرب باللغة العربية وتكلموا بها، وكَتبَ كبار الفلاسفة ورجال الدين اليهود كتبا هامة باللغة التي تُعرَف بالعربية اليهودية أي العربية التي تُكتب بحروف عبرية مع امثال توراتية ومصطلحات دينية عبرية نذكر بينهم الحاخام يوســـف حاييم، الحاخام الاكبر ليهود العراق، والحاخام سعديا غاوون الفيومي من مواليـــد مصر، الذي هاجر الى العراق وكتب كتب الفقه اليهودي باللغة العربية وبحروف عبرية وكان أول من ترجم التـــوراة الى العربية، وانتقد القرائين، أما موسى بن ميمون (المعروف بهرامبم) فأصله من الاندلس وعاش وعمل في مصر، وغيرهم.

في الواقع، يمكن القول أن اللغة العربية هي جزءٌ من هوية اليهود النازحين من الـــدول العربية ووعيهم الثقافي، كما أن اللغة العبرية أصبحت جزءًا من هُوِيَّة العرب في إسرائيل. في بعض الأحوال، يشعر اليهودي النازح من البلاد العربية بأنه أكثر اغترابا من شقيقه المسلم في اســـرائيل. يتحدث البروفيسور شموئيل موريه، في مذكراته، بغداد حبيبتي (2012) ، متذكرا طفولتَهُ في العراق والشـــعور بالاغتراب الذي رافقه كيهودي: في مدرســـة الســـعدون الابتدائية وصفه التلاميذ بأنه «يهودي» ليُميزوه عن المسلمين، ولعلهم يريدون تذكيره بموقـــف القرآن منهم. وبعد نزوحه عن العراق وقدومه إلى إسرائيل كان يسمى «العراقي» أو «الشـــاعر العراقي» وخلال دراستِهِ في لندن قطع الطلاب العرب علاقاتهم معه لأنه يهودي إسرائيلي. إذا كان ذنبـــه في العراق أنه يهـــودي فإن ذنبه في أوروبا وفي إسرائيل أنه عراقي الأصل. نقطة مُثيرة للاهتمام هي أنه خِلافًا لأبحاثـــه التي يكتبها باللغة الإنجليزية، فقد كتـــب موريه مذكراته باللغة العربية التي هي لغة الأم. من خلال لغة الكتابة، يعلن الكاتب أن مضمون الكتاب موجهٌ إلى القارئ العربي بصورة خاصة. وفي الواقع، فإن الذكريات التي بدأت كمقالٍ في الجريدة الالكترونية ‹ايلاف› سرعان ما أصبحت فصولا متَسَلْسلة وقد علق عليها القراء العرب بشكل عام والقراء العراقيون بشكل خاص بصورة متعاطفة معه. ثم أدت هذه الذكريات باللغة العربية إلى حوار بين الكاتب اليهودي والقارئ العربي. على الرغم من أنّ كتاباتِه ليس فيها تملّق للعرب، فإن استخدام اللغة العربية وردود الفعل من القراء أدت إلى إزالة الحواجز وإلى ظهور مشـــاعر من التعاطـــف والتضامن مع مشـــاعر يهود البلاد العربية عامة والعراقية خاصة وبدأ بعض الكتاب العراقيون يكتبون عن خســـارة العراق لعنصر اقتصادي وفني فعّال في تاريخ العراق الحديث. وعلى ضوء هذه الخلفية، يمكننا أن نرى أن الحوار بين الاقليات والاكثرية يُشَّكِلُ وسيلةً للتفاهم والتعاطـــف، كما يقول الفيلســـوف مارتن بوبر في

كتابـــه أنا وأنت. ووفقا لبوبر، يلتقـــي الفرد بالعالم كـأنت، وحقيقة وجود الإنســـان تَكمُن بين الـ«أنا» والـ«أنتَ» وهذه الحقيقة تتواجد بينهما. يسمِّي بوبر فلســـفته باسم «فلســـفة الحوار»، وحسب بوبر، من خلال اللقاء بين الأنا والأنت ومن خلال الحوار بينهما يتعاظم الشـــعور بحقيقـــة وجود ال«أنـــا» (كمال وجوده). المعنى من هذا، وفقا لبوبر، هو أن الحوار هو الوسيلة للتفاهم مع الآخر.

سَـــنَحَت لي فرصة لمثل هذا الحوار مع الآخر عندما بدأت التدريس بجامعة بـــن غوريون وبكلية «أحفَه» (إخاء). من خلال مساق مع طلابٍ لغةُ الأمِّ لديهم هي اللغة العربية، وجدت نفسي اســـتعيد اللغة العربية الكامنة في أعمـــاق ذاكرتي ووعيي منـــذ الطفولة. وجدت أنني «تصالحت معها» وأصبحت افتخر بأنني أتكلم بها. في حديثي مع طالباتي في نهاية الســـنة الدراســـية، قالتْ بعض الطالبات أنهن يشعُرن كأنني واحدة منهـــنَّ. لا بد أن معرفتي اللغـــة والحضارة العربية أدت بنا إلى الشعور بالتعاطف والتضامن. في الواقع، وجدت نفســـي على خلفية الحوار واللقاء مع الآخر أحدِّدُ هويتي من جديـــد، هوية تكون فيها لغة أمـــي العربية متكاملة مع شـــقيقتها العبرية. وعليه فلكي نســـقط الحواجز القومية، فعلينا دراســـة لغة الجيـــران وثقافتهم بصورة جيـــدة والقيام بندوات ثقافية كالتي بادر اليها معهـــد فان لير تمهيدا لرفع الحواجز بين اليهود والعرب، في إسرائيل خاصة ومع جيراننا شعوب البلاد العربية التي اخذت في الانفتاح نحـــو التطبيع الثقافي بين العرب واســـرائيل عامة. وبهذا نبارك الخطوة الجريئة التي بادر اليها المعهد وناقش فيها مواضيع حساسة ومختلفة لتوجيه الرأي العـــام الاســـرائيلي لصالح التفاهـــم والتعاون بين الشعبين.

قائمة المصادر:

العربية:

سيجال، ش. (2007) (ترجمة إلى العربية سمير نقاش). **البستان**. القدس.

العبرية:

حلبي، ل. (2003) (ترجمة من الانجليزية: دفنا روزنبليت) **غرب الأردن**. تل أبيب: رسلينج.

طننباوم، م. (2003). العلاقات بين العائلة وحِفظ لغة الأم ضمن أولاد المهاجرين. **هد هاأولبان هاخاداش**. 85: 39-48.

فنون، ف. (2004) (ترجمة من الفرنسية: تمر كبلنسكي). **جلد أسود اقنعة بيضاء**. تل أبيب: رسلينج.

قشوع، س. (2010). **ضمير المتكلم**. القدس: كتر.

رام، خ. (2007). صناعة الأحلام: إنشاء دول أورو-أمريكانية في إسرائيل وإيران. **جماعة**، 15: 145-154.